

## الفصل الأول

# المـازنـى صـورة حـياة

أن يكون الحديث عن المازنى صورة حياة خير من أن يكون ترجمة حياة نتحرى فيها وقائع التاريخ وأحداث الواقع ، وما الخير فى ترجمة تعنى بذكر المولد والوفاة لشخصية ما ، ومراحلها التعليمية وغيرها من المراحل التى اجتازتها طوال حياتها ، إن لم تعن بالمراحل النفسية والفكرية للشخصية المراد دراستها .

أجل . . نحن لاننكر ما لدراسة هذه المسائل التاريخية من الأثر فى تبيان الأطوار النفسية ، ولكننا ننكر التعويل عليها كل التعويل ؛ لأننا إذا اكتفينا بها فإنما نقول كلاماً لا يحسن السكوت عليه كما يقول النحاة ؛ وخاصة فى دراسة الشخصيات ؛ وتبقى صورة الشخصية المدروسة مصابة بالخداج والمسخ الذى لا يجدى معه تأريخ .

ولأن يكون المازنى صورة حياة خير له وفقاً مع طريقته المحيية إلى نفسه ، فكل حديث فى كتاباته عن شخصيته - وما أكثره - إنما هو من قبيل رسم الصورة التى وكدها فى الحقيقة ترجمة باطنية ، لاتخفى فيها خالجة ولاهاجسة يرسلها متشحة بروحه وطريقته فى المبالغة ، وعدم المبالاة بأحداث الواقع كما هى ، وإنما كان يراها بروح الفنان الأصيل المبدع .

وطريقتنا فى رسم هذه الصورة هى اتخاذ التاريخ وعاءً وإطاراً للصورة ؛ لانتحرى فيها ترتيب الوقائع والأحداث إلا بقدر ما يعين على إتمام الصورة وجلاء بعض ملامحها ، ورب حادثة صغيرة لا يلتفت إليها أعون على أداء هذه «المهمة» من جلائل الأحداث وأعاضمها ، لأن المحك هنا ليس الضخامة والصغر ؛ وإنما المحك أن الحدث لا يعنى به لذاته ، وإنما لأنه يضيف لوناً لألوان الصورة تشحب بغير إضافته إليها ؛ ولعلنا نستبدل بكلمة «يضيف» كلمة «يدخل فى تكوينها» ؛ إذ

هى أبين وأدق لما نقصده .

وسنحاول أن نعنى بإبراز لون فى الصورة يخدم هذا البحث ، ويحاول أن يلقى بعض الضوء على ماكتبه من شعره ، لأننا نهتم هنا بشاعرية المازنى ، فصورة حياة المازنى ومانرصده فيها من شيات وملامح إنما هى وسيلة لتوضيح جوانب حياة المازنى الشاعر ، فلكل لون فى الصورة مرماه الذى يتوخاه ، وإن كنا لانؤمن بهذا الفصل التعسفى بين جوانب الحياة لدى الشخصية الواحدة . . فالمازنى الشاعر خدن المازنى الكاتب والقصاص والإنسان قريب حين تنظر من قريب ، وإن كنا نقدم شاعريته على جوانب ملكاته الأخرى؛ لأن «الشاعرية قدرة على استكناه النفوس والأشياء والتعاطف معها ، ونظرية شاملة للكون والحياة ، والتعبير عنها بعمق وبساطة» (١) ، وهذه السمات واضحة فى كل كتابات المازنى شعراً ونثراً .

وسبيلنا فى استقصاء جوانب حياة المازنى ماسطره قلمه وماكتبه عنه الآخرون . والمازنى من أكثر الأدباء - عندنا - حديثاً عن نفسه وشخصه إن لم يكن أكثرهم ، وهذه التراجم التى يكتبها أصحابها سلاح ذو حدين - كما يقولون - فينبغى أن تؤخذ بحذر ، وبخاصة لدى المازنى ، لا لأنه ظنين فيما يقوله ، ولكن لغلبة الفنان فيه على المؤرخ ، ولأن ترجمته عن نفسه لايتحرى فيها الواقع كما هو ، بل إنه يرسم صورة حياة ، وهذا ما حدا بنا إلى اختيار هذا الاسم لهذا الفصل وفاقاً مع منزع صاحب الصورة ، وقد أحس المازنى - حتى فى أمس كتبه بترجمة حياته - بهذا الإحساس ، فقال : «هذه ليست قصة حياتى ، وإن كان فيها كثير من حوادثها ، والأولى أن تعد قصة حياة» (٢) .

فهو فى حرج من أن يقول إن هذه قصة حياته ؛ لأنه يدرك أن خيال الفنان تدخل فيها ، وقام بتوشيات يقتضيها السياق الفنى ، وإن تخرج دونها التاريخ بعض تخرج ، وهو محق فى هذه المقولة ، لأن التراجم الفنية تستدعى ترتيباً خاصاً للوقائع والأحداث مراعاة لشروط فنية خاصة ، مما يبعد بها عن جو التاريخ كما وقع ، ونحن لانستطيع أن نقول على سبيل القطع الجازم والاعتقاد اللازم إن

(١) مجلة الثقافة ، نوفمبر ١٩٧٣ م ، مقال للكاتب .

(٢) قصة حياة - المازنى ، دار الشعب ، ١٩٧١ .

شخصية العقاد هي كما تصورها قصة «سارة» وشخصية توفيق الحكيم هي كما تصورها قصة «عصفور من الشرق» ، وإن كان في تينك القصتين كثير من ملامح هاتين الشخصيتين ، لأن للعمل الفني دخلاً كبيراً خطيراً في مسار الوقائع والأحداث .

وعلى الرغم من أن المازني مفرط في الحديث عن نفسه كأنه في حرج آثم إن لم يفض بذاته للقراء ، فقد حدث إغماض في تاريخ مولده ، وكأنما تأبى الأقدار إلا أن تخرج له لسانها ، كما أخرج لها لسانه ساخرًا ومعابثًا ، غير مبال بها ، وقد يهون مثل هذا الإغماض في العصور الخوالي نظرًا للظروف الحضارية المحيطة بها ، أما أن يحدث في العصر الحديث فهو أعجوبة تضاف إلى الأعاجيب المازنية ، التي شئت أن تستقبل الحياة أول مرة ساخرة منها غير ملقية بالأحاديث إلى تسجيل التاريخ ، وسخرًا من الخلود الذي يشغف به أبناء الفناء .

«ولد المازني في ١٩ أغسطس عام ١٨٩٠ وتوفي ١٠ أغسطس ١٩٤٩ (٣) .

«ولد المازني في ١١ من يناير عام ١٨٨٩ وتوفي في أغسطس عام ١٩٤٩ (٤) .

« ولد المازني سنة ١٨٨٩ (٥) .

فالاتفاق واقع في تاريخ الوفاة ، وقد حققت هذه المسألة بالرجوع إلى الدوريات الصادرة في تلك الأيام ، وراجعت المقالات التي كتبها الأدباء يوم وفاته ، ورجعت إلى ابنه الأستاذ محمد المازني ، فقال : إن والده مات في الشهر الذي ولد فيه وهو أغسطس ، ولكنه لم يحدد يومًا للمولد ، وإن كان قد أكد أنه ولد عام ١٨٨٩ .

«إبراهيم عبدالقادر المازني» وللأسماء نصيب في دلالتها على أصحابها ، واسم «إبراهيم» من الأسماء التي وافقت هوى مسماها ، ومن السهل تحويره إلى «أبوخليل» كما ينطقها أولاد البلد في الأحياء الوطنية للدلالة على من اسمه إبراهيم ، وهي من مصادفة التسميات وإن سبقها دليل مضمرة في إهاب هذه

(٣) إبراهيم المازني للدكتور محمد مندور ، ص١٦ ، مطبعة نهضة مصر ، ١٩٥٤ .

(٤) مجلة الثقافة ، عدد ٦٠٢ ، مقال لعبد السميع المصري .

(٥) أدب المازني ، د. نعمات أحمد فؤاد ، عام ١٩٥٤ .

الشخصية انعكس على طريقتها فى الحياة وفى معايشة الناس ، فقد قضى حياته فى الأحياء الوطنية ، وظلت فترة الطفولة ، التى قضاها فيها ، ترفد ذاكرته وخياله بمدد وافر خصيب تضمنته كتبه وأقاصيصه .

ويستطيع الكاتب عن الشخصيات أن يتخيل لشخصياته أعمالاً غير التى يعملونها ، ولكن الخيال يضيق أن يتخيل للمازنى مهنة غير مهنة الأدب . . فقد كانت صلته به «صلة نذر وقسمة ؛ علم منذ صباه الباكر أنه يهوى الكتابة وصناعة القلم ، ولكنه علم أنها صناعة لاتجدى على صاحبها شيئاً فى معيشته ، فخيل إليه أنه قادر على أن يعطى الأدب حقه ، وأن يعطى مطالب المعيشة حقها ، فلم يلبث غير قليل حتى تبين له أنه للأدب وحده ، وأن الأدب يلاحقه أينما ذهب فلا يتركه حتى يعيده إلى جواره» (٦) .

والدلائل على صحة هذه الفكرة كثيرة ، فقد تطلع المازنى إلى صناعة الطب بعد أن تخرج من المدرسة الثانوية أسوة بذوى قرابته ، ولكنه ما إن دخل صالة التشريح حتى أغمى عليه ، وكان آخر عهده بها «فولى وجهه نحو مدرسة الحقوق، وكانت مدرسة الحقوق يومئذ أجهر المدارس العليا صوتاً وأكبرها شأنًا ، فيها لصاحب القلم متسع ، وبين طلابها كثير ممن يكتبون وغير قليل ممن ينظمون أو يطرَبون للمنظوم ، ولكن أرواح المعبد وجنوده تجتذب أدينا إليها وهو على أبواب المدرسة فقد زيدت مصروفاتها فى تلك السنة من خمسة عشر جنيهاً إلى ثلاثين جنيهاً . . ولم يكن أدينا فى يسر من رزقه فعدل عن مدرسة الحقوق إلى مدرسة المعلمين» (٧) . وعمل بعد تخرجه ١٩٠٩ مدرساً ، ولكن قيود الوظيفة ضاقت به ، أو ضاق بها ، وحدثت ضده بعض الوشائيات فاعتزل التدريس وعمل بالصحافة وكانت هى ملاذه الوحيد لكى يكتب بحرية ، وكما يشاء .

ومن هذه الدلائل الموحية - لا الجازمة - كرهه للارتباط بالأحزاب ونفوره منها «يكاد - أى المازنى - يستقل عن الأحزاب فى تفكيره وآرائه ، ومن أجل هذا كان يرحب بمقالاته أصحاب الصحف المختلفة فى المذاهب المتباينة فى المبادئ» (٨) .

(٦) بعد الأعاصير للعقاد ، ص ١٣٩ ، دار المعارف ١٩٥٠ .

(٧) المرجع السابق نفسه ، ص ١٤٠ .

(٨) مجلة الثقافة ، العدد ٥٥٥ ، مقال لأحمد أمين .

ويقول كاتب آخر «ومع أنه كان - أى المازنى - فى معظم الأحيان يكتب فى صحف حزبية . . فإنه لم يتأثر إلا فى القليل النادر بالترعات الحزبية الجامحة (٩)» .

كل هذه أدلة تشير إلى أن الأدب استأثر به واستولى عليه مما يؤيد تصورنا لمهنة المازنى فى الحياة ، ولا يعترض بأن الكتابة للأحزاب كتابة على كل حال ؛ لأن الأديب الصادق ، أو لأن أديباً مثل المازنى لا يستطيع أن يفلت من نياط حريره التى تغل منها قيود الوظائف والحزبية ؛ ولأن الأدب فى مفهوم المازنى - أو الشعر على وجه خاص - إذا ارتبط بالأحزاب وعبر عن أهدافها وأغراضها صار أدباً زائفاً إن لم يمتح صاحبه من نفسه وهذا لا يتيسر لكتاب الأحزاب فى كل الحالات .

يقول المازنى : «لقد تركت وظائف الحكومة لأنى لا أطيق القيود ، فكيف أقيد نفسى بأغلال الحزبية الثقيلة . . إنى اليوم حر أكتب ما أشاء وأقول للمحسن أحسنت وللمسيء أسأت فدعنى بالله من هذه القيود وتلك المظاهر (١٠)» .

ويكاد يكون المظهر الذى حدث له فى قاعة التشريح أدل على تمكن الأدب عنده من بقية المظاهر الأخرى ؛ لأن بواعثه كامنة فى أعماق اللاشعور أما الأخريات فمعلومة البواعث ، ولا يصح أن يقال بأننا نفسر الأعمال بعد حدوثها واتضح أسبابها ، فإن استنادنا إلى ما حدث له فى مطالع حياته على أبواب مدرسة الطب يفند هذا الاعتراض ؛ حيث لم يكن للأدب استيلاء ظاهر على نفسه إلا من قبيل الشعور الغامض الذى تشام بوارقه الخفية إلى أن يحين أوان ظهورها ، ولا يقال إن المسألة مسألة أعصاب تتحمل وأخرى لا تتحمل ، فإن الاحتكام إلى الأعصاب يؤيد ما ذهبنا إليه ولا ينفيه ، وهل كان الاشتغال بالأدب إلا مجابهة للحياة بأعصاب عارية لا تجمد فى صمم البلادة ، وهل كان المازنى إلا حاد الأعصاب عاريها ؟ .

### ملامح خلقية وسمات نفسية :

نقصد بهذه الصفات ما يشكل تضاريس هذه الشخصية ؛ بحيث تبين ملامحها فى أدبه وبخاصة شعره ، وسوف نحاول الإتيان بالشواهد الشعرية ما أمكن لجلاء هذه الصورة .

(٩) مجلة الثقافة ، العدد ٥٥٥ ، مقال بتوقيع (ع) .

(١٠) الثقافة ، عدد ٦٠٢ ، مقال لعبد السميع المصرى .

وقد أخذ الفقرة من مقال لأحمد المازنى بالهلال ، ولم أستطع العثور على المصدر الأسمى .

وقد كفانا المازنى مشقة وصفه الجسدى فضلاً عن التصوير «الفوتوجرافى» ،  
الذى يكفل للنظر أن يتوضح معارف الوجه والأعضاء ، ولكن التصوير لا عمل  
فيه للمخيلة والتلقائية اللتين ينهض بهما الوصف الأدبى ، وهو ما يتوافر فى  
كتابات المازنى فى حديثه عن صفاته .

ليس للمازنى حظ كبير فى قسامة وصباحة «كان أخى أصغر منى ، وكان  
جميلاً مشرق الديباجة سميئاً وبضاً غضاً ، فكان أبى يخاف عليه أن تصيبه  
العين ، ومن هنا أمر ألا يدخلوه عليه فى المكتب لئلا يراه ذو عين  
فيحسده»<sup>(١١)</sup> . فى تلك الحالة التى لا يدخل أخوه الأصغر على الأب ، كان  
يسمح لإبراهيم بالدخول مما جعل إحساسه بعدم الوسامة يتضخم حتى ترجمه  
شعراً يقول فيه :

واحمد على وجهك رب الفنون	انظر إلى وجهى الشميم اللعين
كذاك إلا رغبة فى المجون	أحسب أن الله ما صاغنى
كنت بنفسى أول الكافرين	لو كنت للناس إلهاً - إذأ -
كما عنا زوس الإله الفطين	بل كنت أعنو للذى صفته
بصورة شنعاء تقذى العيون	ما ذنب إخوانى أرميهم
يُعيرنى رونقه والفتون	لم أُلّف من بينهم واحدا
لما غدوا يذكون وقد الحنين	باليتمهم بالحسن يعدوننى
كلا ، ولا شعرى السخيف الهجين	مزيتى ، لا الحسن أزهى به
ولا الفضل الصريح المبين	ولا ثراء المال أوصيته الخاوى
يكون لى يوما شفيعى المكين <sup>(١٢)</sup>	لكنها الإخلاص لو أنه

وقد تعمدا أن نقل القصيدة برمتها لأنها وصف وحسرة على ما فاته من  
حظوظ فى هذه الدنيا ، وليس له شفيع غير الإخلاص لو كان فى يوم شفيعاً

(١١) قصة حياة المازنى ، ص ١١ .

(١٢) ديوان المازنى ، ص ٢٨٠ ، المجلس الأعلى للفنون والآداب ١٩٦١ .

مكينًا، وبالتجاوز عن «الحالة الشعرية» يبقى الصدق في الوصف والإخلاص فيه ، ومحاولة تقصى هذا الوصف في كتابات المازنى النثرية شيء عسير فضلاً عن ندوده عن خطة البحث ، وإن كنا سنحاول الاستئناس بها بحسب المقتضيات ، وإلحاح المازنى فى الحديث المفرط من عيوبه دليل على تأرقه منها ، ومحاولة للتنفيس والاستعلاء عن طريق البوح والبث ، ومحاولة أيضاً للرضى عن النفس أو ترضيتها ، وسينسحب هذا الحكم على نظائره فيما يلى من حديث .

يقول المازنى : «ومن دلائل الرضى عن النفس ، على الرغم من الإحاطة بعيوبها والفتنة إلى مواطن الضعف والنقص فيها أنى أستخف بهذه العيوب» ولا أبالى أن أذكرها، ولا أعبا شيئاً إذا رأيت الناس يعرفونها كما أعرفها ، وإنى لأدرك بعقلى أنها نقائص ومذام ، ولكنى أرانى أتخذ أحياناً من المعالنة بها مفخرة ومحمدة ؛ ولست أستخف بها فى الحقيقة ولكنما أحاول تهوينها على نفسى حتى لا يكربنى أمرها ، ولأظل محتفظاً بحبى لنفسى ورضاي عنها وغرورى بها وحب النفس من حب الحياة (١٣) .

وتذكرنى قصيدة المازنى السابقة بوصف ابن الرومى لوجهه - وهو من أكثر الشعراء حديثاً عن نفسه - يقول :

شغفت بالخرد الحسان وما يصلح وجهى إلا لذى ورع  
كى يعبد الله فى الفلاة ، ولا يشهد يوماً مساجد الجمع (١٤)

وليس معنى هذا التذكر أن المازنى نظر إلى ابن الرومى ، وإنما هو اشتراك فى التعبير عن وجه كل منهما الذى ابتلى به كلاهما ؛ وتبقى بعد ذلك لكل طريقته الخاصة .

بقصر فى القامة .. وضآلة فى الجسم .. وبنيان وهنان دلف المازنى إلى الحياة، «ثم حدث أن كان يتسلق لياتى امرأته الأولى بدواء من صندوق معلق بالحائط فسقط وأصيب فى ساقه إصابة خلفت به عرجاً ، وإن يكن خفيفاً إلا أنه

(١٣) مجلة الرسالة ، عد ٢١٠ ، مقال للمازنى .

(١٤) ابن الرومى للعقاد ، ص ٢٩٦ ، ط خامسة ١٩٦٣ ، المكتبة التجارية الكبرى .

لم ينسه طوال حياته» (١٥) .

وهذه الصفات استأثرت بسهم وافر من كتابات المازني ، وأكاد أقول إن القارئ لا يقرأ له وصفاً قلمياً تسنح فيه فرصة لذكر هذه الصفات إلا اهتبلها كأنه يأثم إن تركها ، ولا بأس من إيراد بعض الشواهد لنرى مدى توغل هذه الأمور في غور سحيق من أغوار نفسه ، ولكن المازني بطريقته يحيل هذه المذام إلى مادة أدبية تطهر جراحه ، وتأسو كلومه ، ولعل كتابات المازني عن ابن الرومي وتعاطفه مع وهنه الجسدي وضآلته تشعرك أنه يتحدث عن نفسه أو أنه من قبيل التأساء الذي تتطلع إليه النفس ، حين تحديق بها سوانح ألم أو يأس ، يقول المازني في معرض الحديث عن نفسه : «وقادني إلى الشرطي وهو شيء ضخم جداً ؛ وأنا شيء ضئيل جداً أو كما يقول ابن الرومي :

«أنا من خف واستدق ، فلا يثقل أرضاً ، ولا يسد فضاء» (١٦).

ويقول : «ثم فتقت لي الضرورة حيلة ، فنحيت الحقايب عن الشبكة الممدودة لها فوق رءوسنا ، وورقدت مكانها ، ونمت أننا نوم إلى الصباح ، ولو كنت ضخم الجسم لما تيسر لي ذلك فالحمد لله على الضآلة» (١٧) .

ويصفه أحد الكتاب فيقول : «المازني ضئيل في كله ، قليل في حجمه لو رميت به في مقلة نائم لم ينتبه ، أو لو قذفت به بين شفتي تلك التي يدمى بنانها لمس الحرير ماتعدى أن يكون قبلة على ذلك الثغر» (١٨) ، والنص الأخير نقف عند لبابه فقط ونضرب صفحاً عن الوصف الأدبي .

ولدينا طرفة يرويها العقاد عن المازني فيقول : «كنا نمشي معاً ، ونهبط الدرج معاً ، ولا أكتمكم أنه منظر يغري الكبار المتوقرين بالابتسام فضلاً عن الصغار اللاعبين ، ولكنهم كانوا يغضون عنا ، ولا يذكروننا بأسمائنا وإنما يتساءلون هل جاء

(١٥) إبراهيم المازني . د. محمد مندور ، ص ٣٢ .

(١٦) سبيل الحياة المازني ص ٤٤ ، وهذا البيت يردده المازني في نثره كثيراً .

(١٧) المرجع السابق ص ٤٠ .

(١٨) السياسة الأسبوعية ، ١٣ سبتمبر ١٩٣٠ ، مقال ليوسف حنا .

العشرة ؟ هل خرج العشرة ؟ فإن قيل لهم نعم خرجوا قالوا : الحمد لله (١٩) .  
يقصدون أنه يمثل - لقصره وضآلته الصفر في حين يمثل العقاد لطول قامته -  
الواحد .

وبين يدي شواهد أخرى ، الإتيان بها من قبيل تحصيل الحاصل ، والتضخم  
الذي لا يفيد فحسبنا ما أوردناه .

أما مسألة ساقه المكسورة فنحسبها تركت جرحاً غائراً في أعماق هذه النفس  
الحساسة ، وكأنما لا يكفي الأقدار أن تخرج إلى الحياة رجلاً قصيراً وهنان البنيان  
ليس على حظ كبير من القسامة حتى تضيف إليه العرج ، كل هذا مع نفس  
طامحة متوثبة ، وفكر جامع نشيط :

### ويح النفوس التي تطير بها هماتها ، حين يسخر التعب (٢٠)

ولا ينسى المازني ساقه المكسورة أبداً ، يقول : «فأنا مثلاً إذا وجدت واحداً ينظر  
إلى الأرض قريباً مني لم أشك في أنه يتأمل ساقى المكسورة العرجاء (٢١) ، ويقول  
في موضع آخر : «وكنت جالساً على حافة السجادة ، وساقاي ممدودتان أمامي  
كأنما يمكن أن أمدهما ورائي ، وظهرى إلى مؤخرة إحدى السيارات ، فإن إحدى  
ساقى مهيضة ، فليس في وسعي أن أجلس كما يجلس خلق الله» (٢٢) .

ولو أننا ذهبنا نستقصى إشاراتِهِ إلى مسألة عرجه في كتبه لخرج بنا البحث إلى  
متهاتات ؛ لأنه فلما تسنح سانحة إلا ذكر هذا الظلع ، كأنما يحاول أن يتخفف من  
إصر آده وأثقله ؛ ومعنى ذلك أن لهذا الظلع أثراً بعيداً في نفسه وأدبه خلافاً لما  
قاله العقاد ، فيما ترويه عنه السيدة نعمات فؤاد من «أن إصابته بالعرج لم يكن لها  
في نفسه وخلقه وأدبه أثر ذو بال ، أو على الأقل الأثر الذي يقدره المرء لها (٢٣) ،

(١٩) مقدمة العقاد لكتاب سبيل الحياة للمازني ، ص ٦ .

(٢٠) ديوان المازني ، ص ٢٣٨ .

(٢١) سبيل الحياة - المازني ، ص ٥٩ .

(٢٢) الرسالة ، عدد ٢١٢ ، مقال للمازني .

(٢٣) أدب المازني - نعمات فؤاد ص ٦٨ .

ولعل العقاد يقصد الأثر السيء فى نفس المازنى بأن تجعله هذه الآفة حقوداً شريراً نزر الخير أو معدومة ، فإذا كان مقصد العقاد هذا فهو صحيح ، ولكن هذه العاهة خلفت فى نفسه مرارة نجدها بارزة فيما كتبه ، وفيما نقله عنه العقاد وترويه نعمات فؤاد ، ونجدنا فى حل من إيراد الرواية برمتها تقول :

«وذكر لى - أى العقاد - أن الحادثة الوحيدة التى آلت المازنى بسبب هذه العلة وقعت أمامه فى مقهى "solt" وكان هذا المقهى من معاقل الثورة المصرية ، إذ كان منتدى لكثير من باعثيها والمحركين لها ، وكان من عادة الصديقين المازنى والعقاد أن يرتادا هذا المقهى ، وكان المازنى يحلو له أن يروق النساء ويحسن رأيهن فيه ، وكانت تبيع الحلوى بالمقهى فتاة أجنبية ، فأخذ المازنى يتودد إليها ويتعمد رسمها حين تمر به ليستنطقها ويغيرها بالحديث ، وكان بالمقهى فى ذلك الوقت إبراهيم «بك» زكى ، وكان ثرياً يملك سيارة فى وقت لم تكن السيارات فيه شائعة ، فكان امتلاك سيارة دليلاً على الثراء العريض ؛ وكان ممشوق القد ، فلاعجب أن تستجيب بائعة الحلوى إلى من له مثل هذه الصفات ، وتلبى طلبه إلى الرقص ، وكان حاضراً بالمجلس الأستاذ محمود إبراهيم الدسوقى (وكان السكرتير الشرقى للمفوضية الألمانية بالقاهرة) ولاحظ تأثر المازنى لإعراض الفتاة عنه وميلها إلى صاحبه ورقصها معه فقال للمازنى مازحاً : (هو يرقص معها وأنت احجل لها) فوقعت الكلمة من نفسه وقع السهام وغام وجهه واكفهر ؛ وظل من كربه ساعة بعدها لايتعلق بحرف واحد من فرط التأثر» (٢٤) .

وقد اضطررنا إلى الإتيان برواية نعمات فؤاد على ركاكتها الواضحة فى الصياغة ، ويبدو ذلك فى تكرارها لكلمة «كان» . لكن يبقى بعد هذه الملاحظات العارضة أن العقاد يحاول أن يدافع عن صديقه بأن إصابته بالعرج لم يكن لها أثر ذو بال مجاملة لذكرى صديقه الحميم ، على حين أن المازنى نفسه يعترف بعيوبه كلها فى شجاعة نادرة ، وبغير مبالاة بشرط ألايجرحه أحد وهذا ماحدث فى المقهى ، فضلاً عن أن الجرح حدث فى ميدان الحظوة لدى النساء ، وهى طعنة نجلاء لأنها تستهدف الفطرة البشرية فى أغوارها ، وناهيك بما تحدثه فى نفس رجل

(٢٤) أدب المازنى ، نعمات فؤاد ص٦٨ .

حساس كالمازنى الذى يعتقد - لو أنصفت الطبيعة - أن له من الصفات ما يخول له أن يحظى بما ترجوه نفسه ودعك من الشراء والوجاهة ، ولعل فرط التأثر الذى بدا على المازنى فى ذلك الوقت ، هو الذى جعل العقاد يروى هذه الحادثة على أنها الأثر الوحيد فى حين أن العاهة هذه تفعل فعلها فى نفس المازنى ، وإن كان يغلفها بغلاف التهكم والاستخفاف .

ويخيل إلينا أن هذه العاهة - لأنه أصيب بها بعد فترة من عمره - خلفت فى نفسه مرارة مألحة أكثر من كونه قصيراً وهنان البنيان لأنه جاء إلى الدنيا بهما على حين أن الظلع لاحق بهما ، ولذلك جاء ذكر هذا الظلع فى شعره فى الجزء الثالث من ديوانه وهو بعد عام ١٩١٧ . . وسنحاول أن نورد من شعره ما يؤيد مذهبنا إليه . يصف منظره ، وكيف أنه أصبح كثر عظام :

إذا نظرت إلى كادى شببيته أعطاك كثر عظام فيه منظره (٢٥)

وفى وصية له على مثال وصية «هاينى» الشاعر الألماني ، يوصى المحبوب بما يلي :

وأوصيت للمحبوب بالسهد والضىنى وبالدمع لايرقا ، ولاهو هامر

وبالجدرى فى وجهه ليزينه وبالعرج المرذول ، والله قادر (٢٦)

وله قصيدة هجاء نحا فيها منحى ابن الرومى فى نسج الشعر وفى استقصاء المعانى ، نضطر إلى أخذ فقرة طويلة منها ؛ لأنها تدل على المقصود ولأن فيها قصة لايجوز الاجتزاء ببعضها ، يقول :

سيقول اللعين قزم يلاقيك بساق عرجاء ، ذات التواء  
إن أكن قزماً ، فإن قوافى طوال جداً بغير انتهاء  
كل ذى عاهة ، ولاشك جبار ، فحاذر من رجلى العرجاء  
كان تيمور أعرج الساق فافطن لمعاني العاهات والأدواء  
وتأمل مثال مانحن فيه ، قصة سقتها عن القدماء

(٢٥) ديوانه ، ص ١٢٤ .

(٢٦) المرجع السابق ، ص ٢٢١ ، ويعلق المازنى فى الهامش بقوله : جرى العرج بيالى لأنى أنا أعرج .

زعموا أن معشراً ، ركبوا الماء ، وحثوا سفينهم بالغناء  
ورآهم قزم فنادى مهيباً أن دعونى أكن من الشركاء  
أنا قزم كما ترون ، فلاتخشوا زحامى مجالس العظماء  
فرضوا ، وانبرى إليه سفيه ، حسب الفضل كله فى الرياء  
ذو لسانين - بل بوجهين ملاق ، ووجه يعيب بالإيماء  
يتلقاك خاشعاً باسم الثغر ويلقى حباتل الحقرء  
وإذا ماسمعتة ، قلت سبحانك ربى ذا أوجد الفضلاء  
وإذا مابلوته لم تصدق أنه ينتمى إلى حواء  
ورآه القصير يضحك منه حاسباً أنه من الأغبياء  
وإذا بالسفين جاش بها التيار ، والقزم آخذ فى النماء  
وأحس الرفاق بالضيق حتى عاجلوا غمرة الردى والفناء  
وأخونا القصير يكبر أضعافاً ، ولكن عن صحة وامتلاء  
وانثنى سائل يقول من العملاق إنا من كربه فى بلاء  
قال كنت القصير قدماً ، فأما الآن فالضخم هائل الأنحاء  
ذا مثالى ، لو كنت تفهم ياغر ، ولكن حرمت فضل الذكاء  
ذا مثال العظيم يظهر فى الناس ، ويمضى بأوفر الأنصباء(٢٧)

وهذه الفقرة من القصيدة - وإن كانت طويلة بعض طول - إلا أنها مهمة فى  
الإبانة عن صفات المازنى برمتها من ظلع وقصر وضآلة ، وكيف أنه على الرغم  
من ذلك عملاق يسد الفضاء ، وعظيم يغالب العظماء ، وكيف أن إحساسه الحاد  
بهذه المذام جعله ينفذها عن كاهله فى هذا النسيج الفنى الجميل .

وإحساس المازنى بعدم القدرة ، وشدة الوهن جعله يأسى على قوة الإنسان  
وقدرته حين تكون فى إهاب ضعيف ، وأصبحت المسألة عنده مسألة عامة :

فقد القدرة الإنسانية ، وثناء فاحش فى الأمانى والأحلام ، وعجب عجب من

---

(٢٧) ديوانه ، ص ٢٤٠ .

أعجب للحظ هل مقسمه أراده - ويلنا - أعاجيبا  
 أجزل من سهمة الرجاء لنا فكل شيء نراه مقلوبا  
 لكنه قد أحس قدرتنا ياليت ماشاء كان مقلوبا  
 غنى أمان ، وفقر مقدره فلن ينال الفؤاد مرغوبا (٢٨)

والمازنى يتنفس من خلال الإنسانية كلها ، والذي يعيننا هنا هو فقر المقدره وإحساسها، وهذا المعنى يلح على المازنى فى كثير من شعره ، وبخاصة بعد إدبار شباب وهنان ، وإن كان لإحساسه الجارف بذمائه اليسير دعاه شابا ذا أسر :

أصبت فى العزم لا الشعور ، فإن أدرت لحظى فى الشيء لم يدر  
 وإن مددت اليدين خانهما عزم الشباب الجرىء ذى الأشر (٢٩)

ولكن المازنى يمتلك عينين هما أقوى مافيه ، وهو يحس بذلك عارم الإحساس ، يصف فتاة صادفها فى الجبل فيقول : «وهذه الفتاة من أعاجيب الخلق ، فإن لعينيها نظرة تنيم الحية ، كما عرفت بالتجربة المرعبة ؛ وأنا قوى النظرة حادها ، وفى وسعى أن أحدق فى قرص الشمس ، ولكنى لم أستطع أن أحدق فى وجه هذه الفتاة العجيبة (٣٠)» ، ويحكى عن نظرتة ومدى تأثيرها ، وكيف أنها تخيف من حوله ، وبها يستطيع تنويم من ينظر إليه ، ومن حوادثه يقول : «إن زوجى دخلت على مرة وأنا مضطجع أفكر ، فوقفت أمامى لحظة ، وأنا من ذهولى لا أراها ، ثم خرجت مضطربة فزعة تقول إني «أزغر» لها ، ومنها أن تلاميذ لى - أيام كنت مدرسا - كانوا إذا بادلتهم النظر لا يطفون ، ولا يستطيعون أن يحولوا عيونهم عنى ، ومنها أن فتاة من أقربائى صاحت بى مرة «لاتنظر إلى هكذا فإنى خائفة» ، وما كنت أراها وأنا قاعد ، ولاكان نظرى إليها فيما أعرف أو أشعر (٣١) .

(٢٨) ديوان المازنى ، ص ١٨١ .

(٢٩) السابق ، ص ٢٤٤ .

(٣٠) سبيل الحياة - المازنى ، ص ٤٦ .

(٣١) المرجع السابق ، ص ٧٥ .

وأرانا وصلنا الآن إلى إبراز صفاته الجسدية ومدى تأثيرها أو أثرها ، ولاشك أن هناك صفات أخرى ، ولكننا اخترنا ما هو بسبيلنا وماله مساس مباشر بهذه الشخصية .

والوقوف عند الملامح الجسدية - كما لا يخفى - وقوف على ملامح هذه الشخصية النفسية ، ولامشاحة فى مدى العلاقة القائمة بين النفس والجسد ، وليس ثمة حديث عن أى شخصية من هذا الطراز إلا استتبع حديثاً عند خصائصه الجسدية .

والكلام عن ملامح المازنى الباطنة سيكون مقصوراً على بعض سماته التى لها علة قائمة بأدبه وحياته ، وليس من المفيد أن نسرّد قائمة بهذه الملامح وتلك السمات ، وإنما المهم هو استشفاف ما وراءها .

حزمة من الأعصاب الدقيقة النسج فى إهاب واهن ، صادفت من الأزمات النفسية والفكرية ماسبب لها نوعاً من الاختلال ، فقد أصيب صاحبها «بالنوراستانيا» نتيجة ترديه فى أحد المقابر وهو عائد ليلاً ؛ وملامسته لجثث الموتى أو ماتوهمه جثثاً ، وهذا شىء يسبب الخلل ، إن لم يكن الجنون لمن كان لأعصابه مساك فضلاً عن من له أعصاب عارية . . يتحدث المازنى عن إصابته بهذا المرض فيقول : «وكانت النورستانيا فى أول الأمر خفيفة محتملة ولكنها تفاقمت على أثر سقوطى فى ظلمة الليل فى قبر خرب تعلقت بى فيه العظام النخرة ، فخرجت منه حين خرجت بوجه ميت وأعصاب مخبول ، وصرت بعدها أتوهم الموت فى كل شىء حتى لكنت أدعو أهلى أن يحضوا بى ويمسكونى ؛ لأنه كان يكبر فى وهمى فى تلك اللحظات المشثومة أن شيئاً مرعباً سيحدث لى ويجرى علىّ ، وأن قوة مخيفة (٢٢) ستخطفنى» .

ويخيل إلينا أن هذه الأعصاب كانت على استعداد للخلل ، ولو لم يقع لها هذا الحادث - فمثل هذا الحادث ضاعفه - لأن صاحبها بتوهمه وبما يخلقه الخيال النشيط فى أزمة دائمة .

---

(٢٢) سبيل الحياة ، الدار القومية للطباعة والنشر - دون تاريخ ، ص ٥٢ .

ويغلب على أصحاب هذا المزاج تضخيم الأمور وتهويلها ، وسوء الظن بالناس ، والتفكير المرعب فى الموت ، والتشاؤم الذى يلف بعض هذه النفوس فى حنادسه ، والاستخفاف المر بما تواضع عليه الناس ، وفى وضعنا أن نتحدث عن المزاج المشائم لتحدث عن المازنى .

ونحسب أننا لانأتى أمراً إداً حين نقول إن هذه السمات تمثلت فى صاحبنا أصدق تمثيل وأوفاه ، وكل صفة سلفت من هاته الصفات يندرج تحتها أناس كثيرون مع المازنى ، ولكنه توافق مزاج لا توافق تفكير ، فضلاً عن أن المازنى أضفى عليها ثوباً مازنياً لا يخطئه الناظر .

وقد يعترض بأن تهويل الأمور وتضخيمها من ألزم الأمور لكل أديب يعينه عليها خياله النشيط ، وهذا صواب من جهة الشكل فقط ، أما أن ينقلب التخيل والتوهم إلى حقيقة يعيشها صاحبها ، فهو مايفند هذا الاعتراض «أحب الروايات لأننى أحب الأحلام ، وما أكثر مايحيرنى الأمر أذكره : أهو بعض ما اتفق لى أم بعض ما حلمت به (٣٣)» ، ويصرخ المازنى صرخة من يكره خياله ، فيقول : «إن الخيال لعنة أو هو كذلك فى اعتبار أكثر الناس أو فى تجاربهم ، وقل من يشعر بالراحة مع الخيال لأنه مزعج مقلقل (٣٤)» .

ويخطيء الدارسون حين يقفون عند ظاهر التشاؤم ليروا أن هؤلاء المشائمى ضد الحياة ، ولايلمحون ماوراء العناوين . يقول بعض الدارسين «أما المازنى فقد كان مخلصاً طول حياته لفلسفة واحدة ، يتكامل فيها كل إنتاجه الأدبى من شعر ومقالة وقصة هى الهرب من الحياة ...

والحقيقة أن موقف إبراهيم - الكاتب - هو موقف المازنى نفسه ، وهو موقف قوامه التشاؤم واليأس والهروب والفردية المعرقة والتفكير دائماً فى القبر (٣٥) ،

(٣٣) السياسة الأسبوعية ، ٢٧ أبريل ١٩٢٩ ، مقال المازنى .

(٣٤) إبراهيم الكاتب ، ص٢٧٤ ، الدار القومية للطباعة والنشر ، ١٩٦٠ .

(٣٥) فى الثقافة المصرية ، محمود العالم وعبدالعظيم أنيس ، ص٧٣ ، ٧٤ ، دار الفكر الجديد ،

١٩٦٥ .

ويقول دارس آخر «ويخيل إلى أن التشاؤم وسوء الظن قد خالطا روح المازنى ومشاعره ، وأصبح اليأس من الحياة ومن الناس إحدى<sup>(٣٦)</sup> طباعه المتأصلة فى نفسه والعواطف المنبعثة عن وجدانه ، حتى إنه ترجم هذه العاطفة شعراً بلغ منتهى القوة مع ندرة الجيد من شعره ، فقال :

أكلما عشت يوماً أحسست أنى منه  
وكلما شمت خلا وجدت أنى فقده  
ثوب الحياة بغيض ياليتنى مالبسته

إن هذه الأبيات البليغة التى تقطر أسى ومرارة تصور إلى أى حد أوغل المازنى فى التشاؤم ، وإنى لموقن أن المازنى فى رأيه هذا قد تأثر إلى حد كبير بأبى العلاء المعرى حتى حاكاه فى كثير من أقواله<sup>(٣٧)</sup> .

ونستطيع أن نصرف النظر عن تخطيطات هذا الدارس الأخير ودعاواه العريضة التى يسوقها بلهجة اليقين ، لنناقش مانحن بصدده عن حقيقة التشاؤم والمتشائمين .

فالواقع أن هؤلاء المتشائمين ليسوا فاركين للحياة إلا لأنهم يريدون المثل الأعلى ، ولأنهم أشد إحساساً بالحياة وعطفاً على الناس وعامة الأحياء من رواد الجماع وأحلاس الزحام «وهم يرفضون الود الرخيص والود المزيف لأنهم أشوق إلى الود النفيس وأعرف بالود الصحيح<sup>(٣٨)</sup> ؛ وتشاؤم المازنى «لم يكن تشاؤم النفس الناضبة ، لا يتصل بينها وبين الدنيا سبب من الفهم والشعور ، ولم يكن تشاؤم النفس الوضيعة لا تطلع على نبيل فى الدنيا ولا تود أن تطلع فيها على نبيل ، ولم يكن تشاؤم الأنانية التى تريد احتجاج الخير كله ، وتتهم الناس بالكنود لأنها هى لا تنطوى على غير الكنود ، ولكنه تشاؤم العاطف الذى يرثى للناس من عسف المقادير ؛ لأنه يحس تلك المقادير فى ذات نفسه ، ويحيط ميدانها بعطفه ، وينفذ إلى دخائلها نفاذ الوالد المشفق إلى دخائل قلب وليده ، ثم يتمنى لو لم تكن الحياة ، ولو لم يكن الأحياء . . لا ، لأنه يحب لهم الموت ، ولكن لأنه

(٣٦) هكذا فى الأصل ، والصواب «أحد»

(٣٧) مجلة الثقافة ، عدد ٦٠٢ عبد السميع المصرى .

(٣٨) ساعات بين الكتب ، العقاد ، ص ٢٦٦ .

يحب لهم حياة خيراً من هذه الحياة وأسلم من الوهم والشقاء (٣٩) .

ويعلل بعض الكتاب تشاؤم المازني ويفسره بوضوح قائلاً : «وإني لأرد تشاؤمه إلى نشأته يتيماً ، وأرد تمرده إلى الوراثة وإلى ظروف جهاده وحيداً لنفسه ولعائلته التي صار ربها وولى أمرها منذ التاسعة من عمره ، فالتواء الحياة ولؤمها هو الذي بعثه هداماً ، وأفسد ظنه بالخير ، لكنه لما كان خيراً بطبعه فناناً بملكاته وتهذيبه وتجاربه ومرانه على الابتكار ، لم يجيء تشاؤمه خلواً من الشفقة والعطف . . فهو ينكر هذا أو ذاك لأنه يريد خيراً منه لخير الإنسان (٤٠) .

ونحن لانوافق الكاتب على إرجاع التشاؤم إلى نشأة اليتيم وحدها ، وكثيرون من اليتامى ليسوا متشاؤمين ، ولأنها ليست إلا واحداً من جملة عوامل منها التكوين وظروف الحياة ، قد تضافرت كلها على صوغ هذا المزاج المازني .

وليس التشاؤم جموداً تجاه الحياة ، وكزازة أمام ظواهرها ، وبخاصة لدى أمثال المازني ، وإنما «التشاؤم - كالتفاؤل - يكون مع الحب والاهتمام أو مع الظن الحسن والأمل المشبوب ، تجيء خيبة الأمل حين يكون الأمل معقولاً أو شبيهاً بمعقول ، أما إذا غلب اليأس من البداية فالتشاؤم ولاإخلاف ظنون ، الذي يهجو المرأة يحبها كالذي يثنى عليها ، والذي يملأه الغيظ منها كالذي يملأه الشوق إليها - أما الذي يلهو بها فلا شوق ، ولا غضب ؛ ولافرح بلقائها ولاحزن لغيابها ، فليس ذلك من العشاق المدلهين ، ولكنه من طلاب الفراغ العابثين (٤١) .

وأثر الأحزان في الآداب العالمية أنشد وأبقى من أثر الضحك ، لأن الأدباء طلاب مثل أعلى ، وناشدو كمال ، وهذه الدنيا الدنية - كما يقول ابن الرومي - هيهات أن تحقق لهم ماتطلعت إليه نفوسهم وطمحت إليه ؛ «وحتى القصص الفكاهية الممتازة يرسب في أعماقها الحزن» (٤٢) ودعاة الأمل ، والقوة من الأدباء والفلاسفة لم يخل نتاجهم من أحزان وآلام ؛ لأن «التفاؤل الخالص دليل البلاءة

(٣٩) ساعات بين الكتب ، العقاد ، ص ٢٦٥ .

(٤٠) السياسة الأسبوعية ، ١٣ يوليو ١٩٢٩ ، أحمد خيرى سعيد .

(٤١) رجعة أبي العلاء ، العقاد ، ص ٧٤ .

(٤٢) مجلة المجلة ، فبراير ١٩٥٩ ، على أدهم .

والغباء وبلادة الحس والانغماس فى الحيوانية وضعفاء العقول هم الدائموا الابتسام والضحك» (٤٣) .

ونعتقد أن من جملة المؤثرات التى أدت إلى هذه النظرة للحياة عند المازنى قراءته رواية أرتزيباشيف «سانين» التى تنعكس فيها الدعوة إلى المجون والخلاعة الجنسية والنفور من القيم والمثل الاجتماعية ممثلة فى البطل الرئيسى للرواية» (٤٤) ، وهذه الرواية تخلق الاستخفاف بالحياة للمعافى ، فما ظنك برجل كالمازنى وهو على استعداد لتلقى هذه النظرة والتأثر بها أبلغ التأثر ، وإن كان ينكر تلك الخلاعة الجنسية فى شخصية البطل ، يقول العقاد : «ولست أنسى هزة وجدانه بأفاعيل سانين بطل القصة مع إنكاره لتلك الحيوانية اللجوج التى مثله بها مؤلف القصة ، وقد بلغ من رضاه عنها أنه ترجمها باسم «ابن الطبيعة» ، وأنه كان يردد بعض «لوازم» سانين فى كلامه بعد قراءتها بسنوات» (٤٥) .

ومنها أيضاً «آلام الصدمات المتعاقبة ؛ ولاجرم أن تثقل هذه الصدمات على من يعانيتها من كوارث الحرب العظمى ومن مزاولة الشدائد والمضنيات فى بيئة الأدب وبيئة التعليم وبيئة الصحافة مجتمعات ، فيخفف ثقلها بما استكن فى طبيعته من نوازع الاستخفاف» (٤٦) .

ونحن نقف ضد طبيعة الأشياء ، حين نريد من المازنى أن يكون على خلاف ما أشرح عليه ، فإن قتل الريح أهون من أن يكون المازنى محباً للحياة فى بلاهة وغباء ، وأن نطلب منه أن يثق فى الناس ، وهو قد عانى من أقربائه - أخيه بصفة خاصة - ما يزيل كل ثقة صحيحة أو زائفة ، «فقدت الثقة بالناس وانطويت لهم على سوء الظن والتحرز إذ كان أخ أكبر - غير شقيق - يستطيع وهو آمن أن يجنى على إخوته وأمهم وجدتهم ، فما ظنك بالغريب» (٤٧) .

---

(٤٣) المرجع السابق .

(٤٤) دائرة المعارف الأدبية السوفيتية ، وقام الدكتور فتوح أحمد - مشكوراً - بترجمة بعض فقرات منها .

(٤٥) بعد الأعاصير ، ص ص ١٤٦ ، ١٤٧ .

(٤٦) السابق ، ص ١٤٦ .

(٤٧) سبيل الحياة ، المازنى ، ص ٣٤ .

كل هذه الآفات والأزمات سدكت بالمازنى ، ويأتى متعجل متسرع ليقول إنه مخلص لفلسفة واحدة ، هى الهرب من الحياة ، ثم يجد من يستمع إليه ولا يوليه ما يستحقه من الإزراء والإغضاء ، وما كان الرجل هارباً من الحياة ، وإنما كان مريداً لها خيراً أسمى وأرفع ، متحرراً إلى الأمثل والأكمل ، ثم إن السيدين العالم وأنيس عمَّما الحكم على كل كتابات المازنى عند تعليقهما على نهاية بطل «إبراهيم الكاتب» ، ناسيين أو متناسيين أن منطقية الحياة وأحداث الرواية تحتمان هذه النهاية ، وأن اعتزال الحياة أحياناً إراغة لحياة صحيحة سليمة ، فالداعيان إلى الحياة بهذه الطريقة الفجة ، داعيان فى الحقيقة والنظر غير المزغول إلى الموت ، لأن حياة كهذه التى يطلبانها لاتستحق «أل» التى للتعريف ، والتى لايساوى اللفظ دونها شيئاً ، ويستوى فيها آئذ الإنسان والسائمة .

وبرغم تشاؤم المازنى وطيرته وتمكن ذلك من نفسه ، كما يدل على هذا قوله «وكان إبراهيم يتطير من لاشيء ومن كل شيء - وليست الطيرة فى الطباع كما يزعم ابن الرومى ، ولكنها إلا تكن فيها ليست مما يستغرب ، ولعل مكافحتها أدل على معاناتها من الإقرار ، فما يغالب المرء غير موجود أو يصارع معدوماً ، وإذا قيل إنه يطرد وهماً فالوهم حادث والشعور به حقيقى ، وله أصل ينبجم عنه وعلّة تحدّثه . ولم تكن طيرة إبراهيم عن ضعف فى العقل أو نقص فى الإدراك ، بل كانت بعض ما أورثته النوراستانيا وتلف الأعصاب ، وكان يعرف أن طيرته خرف ، وكان لهذا يكتمها» (٤٨) .

نقول برغم تمكن هذه النزعة فى شعاب نفسه واكتظاظها بها . . فإنه كان سليم الإدراك موفور العقل ، وماكان أدبه أكبر من عقله كما هو الحال فى ابن الرومى ، وما أورثه ذلك خبلاً ذريعاً بحيث يجعله لايريم عن بيته كما كان ابن الرومى فى طيرته ، فإن المازنى كان قوى النفس مغالباً - فى الأغلب - لهواجسه ، ومن هنا كان تمرده على الأدب الموروث الضعيف المتهافت وثورته - مثلاً - على الأغاني المصرية ومبالغاتها فى الرقة والتطرى «فالحب فى الأغاني المصرية أكثر مايدور على معانى الرخاوة ، كما كان الغزل فى شعر المتأخرين من العرب فيما نظم المقلدون

(٤٨) إبراهيم الثانى - المازنى ، ص ١٧٠ : راجع إلى صفحة ١٧٥ - الدار القومية للطباعة والنشر . ١٩٦٠ .

والتكلفون من المصريين ؛ ولست أعرف شيئاً هو أشد إغلالاً فى الأنوثة والتطرى من الأغاني المصرية حتى الحديث منها ، فهى دموع وسهاد وعجز عن التصرف والاحتياى وضعف عن الاحتمال وتطر هو منقصة للرجولة وتخل عن مميزاتا وخصائصها ، وهنا موضع التحرز ، فلست أقول إن الرجل لايبكى أو لا يؤرقه وجده . ولكن الذى أريد أن أقوله هو أن بكاء الرجل التام الرجولة لا يكون إلا رائعاً ، وإلا خالياً من معانى الضعف والأنوثة كالشجرة الضخمة حين تقصف أغصانها الأعاصير الهوجاء ، وكون الرجل قوياً ليس معناه أن الحياة ليست أقوى منه ، ولكنما معناه أنه حتى حين تغلبه الحياة ويعجز عن ضبط نفسه ، يكون ذلك أدعى إلى «قوته المقهورة» منه على الضعف على «ضعفه النسبى» (٤٩) .

فرغم هذه الأزمة ، كان المازنى يعرف كيف يواجه الحياة ويجالدها ، ولكل طبيعة سلاحها الذى يتفق ومنازعتها وأمبالها ، وقد ساعدت ظروف العصر على استحكام المحنة ، وبخاصة فترة الحرب العالمية الأولى ؛ إذ كانت - كما يقول العقاد - «نقطة تحول ومحنة عقل وسريرة ، وإخال أنها شملتنا جميعاً بهذه المحنة الأليمة ، فنفضها شكرى عنه بقصائده العابسة فى ديوانيه الثالث والرابع ، ونفضتها عنى بقصيدتى التى نظمته على نمط الملاحم وسميتها بترجمة شيطان ، وراضها المازنى كما راضته فاستراح إليها غاية ما استطاع من راحة ، وعالجها يومئذ ومازال يعالجها بعد ذلك بنزعة الاستخفاف وقلة الاكتراث» (٥٠) .

ويغلب على مثل هذا الطراز من الناس أنهم يطلبون حياة جديدة غير الحياة التى يرونها ، يشيع فيها البلى سفلأ وعلوأ ، ومن هنا كانوا مجددين لأنهم بعدم رضاهم بالواقع وبالمتعارف الموروث الرث فى الآداب والفنون يحز فى نفوسهم الألم ، وتشيع لديهم النغمة الحزينة المقطبة ، ويهدمون ما لا يصلح للبقاء ، ثم بينون ما يرونه صالحاً للحياة الجديدة الصحيحة ، وقد كان المازنى فى طليعة المتمردين على الأدب التقليدى عندنا ، وفى طليعة المجددين من هذه الزاوية .

(٤٩) السياسة الأسبوعية ، ١٥ ديسمبر ١٩٢٨ ، مقال للمازنى .

(٥٠) بعد الأعاصير ، ص ١٤٥ .

ومن العجب أن تتصافر حولهم الآلام من كل صوب فى حياتهم العامة والخاصة ، ويمنح واحد منهم كالمأزنى للحياة بسمة مستخفة ساخرة ، ويمنح للمحزونين سلواً وعزاءً «ولله هذا المارد إذا تجرد من الجد وعاد صبيّاً مرحاً وطفلاً لعباً ، إنه إذا يسرك ويفيدك ويفيض من حبوره على لوعتك إكسيراً ، هو الترياق من كل هم» (٥١) .

لنا الله من قوم نذيب نفوسنا	ويجنى سوانا مانشور ونقطف
ويصدر عنا الناس ربا قلوبهم	ونحن عطاش بينهم نتلهف
نذوق شقاء العيش دون نعيمه	علي أننا بالعيش أدرى وأعرف
ولكنه ما أخطأنا لذادة	إذا بلغ السؤل القريض المثقف
إذا هو سرى عن لهيف مفعج	وأنس قلبا موحشا يتشوف
فما نحفل الدنيا إذا جل ظلمها	ونحن من الأيام والعيش ننصف (٥٢)

وهذا الرجل المتهم بكرهه للحياة وهروبه منها ليس أحنى منه على أهله وأصدقائه ، بل على كل الكائنات والحياة بأسرها ، ومن يقرأ ما كتبه نثراً ونظماً فى العطف على أهله وأصدقائه والحياة كلها يدرك أنه أمام قلب دائم الحضور لا يغيب ، وأمام إحساس متوهج ينفذ إلى أعماق الأشياء ، متعاطفاً معها أبلغ التعاطف ، وماتراه من مسحة قطوب بادية إنما هى قطوب الطفل الذى يطلب نصيباً من الحلوى أكبر من نصيبه . . فالرجل طفل كبير وإن وخطه الشيب ، وماتراه من لذع فى هجائياته لا يغفرك ظاهره الخشن لأن فى أعماقه حسرة وأسى ، ولأنه المبدوء بالأذى فلا أقل من أن يدافع عن نفسه ، التى إن فتشتها تجد مهاداً وثيراً من العطف الحزين لاتزيله تلك اللذاعة البادية .

والذى يقرأ مراثى الرجل لأولاده نثراً ونظماً ، وكيف أن رغبته البقاء لهم تستبد به يدرك أنه أمام نفس عاطفة وقلب كبير ، حرمة الأقدار بنوة البنات على إثاره لهن وكلفه بهن «وعندى أن شعور الأب نحو ابنته حقيق أن يكون أصفى من

(٥١) السياسة الأسبوعية ، ١٣ يوليو ١٩٢٩ ، مقال لأحمد خيرى سعيد .

(٥٢) ديوان المأزنى ، ص ١٦٩ .

شعوره نحو ابنه ، وأقول إنه حقيق أن يكون كذلك لأنى لست على يقين منه إذ لم أجره . . فقد أبت المقادير أن تكون لى بنت أتملى بها وأنعم (٥٣) . ويقول فى رثاء ابنته :

قد تزلت فى الهموم فما أخلع بردا إلا للبس برود  
لو رمانى الزمان فى نضرة العمر لكنت الجليد جد الجليد  
ولكان المصاب كالهزم فى الصخر ، ولكن قد حطم الدهر عودى  
ماعليه لو أنه كان أبقاها عزاء لوالد مفؤود(٥٤)

ويقول من قصيدة ضاعت نسختها - كما قال - ولم يبق منها غير بيتين هما :

فقدتك لم تعلق بذهنك صورة      ورب صغير رزؤه كالأشايب  
تقنصك المقادير منى عنوة      وأقلع عنك الموت دامى المخالب(٥٥)  
ويقول فى مواساة أمه :

يا أم لاتجزعى مما يحقيق بنا      من الخطوب ، ولاتأسى لما فاتا  
تمضى المقادير فينا الحكم عادلة      ويقسم الله أرزاقا وأقواتا  
وكل ضائقة تعرو إلى فرج      وإن لليسر مثل العسر ميقاتا  
ضل الذى يرتجى تأخير قسمته      قد مات كالكبش إسماعيل قد مانا(٥٦)

ويعلق العقاد هذه الأبيات الأخيرة بقوله : «هذه الأبيات قد أودعت نفس المازنى كلها. . . نفس المازنى الشاعر الذى لاتجديه براءته من الشعر . . نفس المازنى العطوف الذى يؤلمه الحزن فى نفس أمه ولايشغله عنه حزنه وألمه وهما أشد وأقسى . . . نفس المازنى القدرى الذى أسلم دنياه لقضاء الله . . . نفس المازنى الذى طرقت أبواب خلدته حكمة الاستخفاف وقلة المبالاة ، وما نفع المبالاة ؟ إن

(٥٣) السياسة الأسبوعية ، ٢٠ ديسمبر ١٩٣٠ ، مقال المازنى .

(٥٤) ديوانه ، ص ٣٧ .

(٥٥) السابق ، ص ١٣٥ .

(٥٦) السابق ، ص ٢١٣ .

إسماعيل المفتدى قد مات كما مات الكبش الذى فداه (٥٧) .

وربما قيل من قبيل التعسف الكاذب إن حب الرجل أهله لا يثاب عليه ومن ثم لا يحسب له حساب ، وقد يكون لهذا الكلام وجهة ظاهرة إن لم تحسب حساب نوع الحب واللهفة والأسى ، التى تخامر نفساً حساسة كنفس المازنى الشاعر العطوف ، وكيف يستقيم هذا المنطق ، والرجل قد شمل الكائنات كلها بكل قلبه وعطفه «فالدار المهجورة» التى :

قد كساها البحر ثوباً مظلماً      ما أضل الطرف فى هذا الإهاب  
والتى يدعوننا إلى :

أوصدوا الأبواب بالله ولا  
تدعوا العين ترى فعل البلى  
وامنعوا دار الهوى أن تبذلا  
إن للدار علينا ذمماً

وقبيح خونها بعد الخراب (٥٨)

والوردة الذابلة التى حنا أضلاعه على ذوى سناها ، والنسر المهيض ، والإسكندرية ، ومراثيه لأصدقائه ، ومراسلاته الشعرية إلى العقاد وشكرى ، واستقباله للأخير ، وهو عائد من الخارج بقصيدة من جياذ قصائده يهتف قائلاً :

أما فتى صادق الهوى كأخى      شكرى يرد الزمان عن لوبه  
أوثق من تصطفى ؛ وأكرم من      تأخذ من عقله ومن أدبه  
خلاتق سهلة موطأة      كالبارد العذب غب منسكبه  
كم مجلس والوداد ثالثنا      والراح تجلى كالحق من حجبه  
ذاك قريبي وليس من رحمى      وهو نسيبى ولست من نسبه  
إن ضرب الدهر بيننا فلقد      لف كما كان قبل شملى به (٥٩)

(٥٧) بعد الأعاصير ، ص ١٥٤ .

(٥٨) ديوان ص ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٥٩) ديوانه ، ص ٨٤ .

ولو ذهبنا نستقصى لأعياننا البحث ، لأن نظرة واحدة على الديوان أو على فهرس قصائده توضح إلى أى حد كان الرجل غير منزور العطف ، بل كان مشبوه ومستوفزه ، ولكن العلة واثته وقد صادفت استعداداً فخرج أدبه صورة لهذه النفس القلقة المتشائمة الحساسة التى توشك - كما يقول العقاد من فرط حسها وشعورها وتخليها - أن تخاف مما يسر خوفها مما يسوء كما قال من أبيات :

ويروعنى يأسى ويفزعنى      أملى ، وأفرق من لقاء غد  
ولرب جوهرة ظفرت بها      فنفضت منها كف مرتعد  
ورجعت أنظر هل بها أثر      منها يظل يهيض من جلدى<sup>(٦٠)</sup>

وقد بلغ من وقر هذا الإحساس بتوالى النكبات والاستعداد الطبيعى والمكتسب بالقراءة ؛ وبخاصة فى الكتاب المقدس ، ورواية سانين أن ألح خيال الموت على صاحبنا ، فأنشد لأحلام الموتى :

إذا ما الليل نام رأيت قلبى      كلوئاً مطعماً مر الفظام  
وما طاف الكرى بالعين إلا      ليفتحها على الكرب العظام  
وفى ظلم القبور لنا مجير      يجلى وحشة العيش الجهام<sup>(٦١)</sup>

وصرخ فى طرأة السن وغضارة الشباب :

لبست رداء الدهر عشرين حجة      وثنتين ياشوقى إلى خلع ذا البرد  
عزوفاً عن الدنيا ، ومن لم يجد بها      مراداً لآمال تعملل بالزهد

\*\*\*

أبيت كأن القلب كهف مهدم      برأس منيف فيه للريح ملعب  
أو انى فى بحر الحوادث صخرة      تناطحها الأمواج وهى تقلب<sup>(٦٢)</sup>

(٦٠) بعد الأعاصير ، ص ١٤٣ .

(٦١) ديوانه ، ص ٣٩ .

(٦٢) السابق ، ص ٤٢ ، ٤٣ .

وبلغ به الحزن والأسى أن قال :

أرى فى أديم الطود عاث برأسه الخراب وواراه الضباب مثاليا(٦٣)

وقويت بالمازنى على مر الزمن نحيزة الاستخفاف ، ولم تسلم نفسه من هذا الاستخفاف بل ربما حظيت بالنصيب الأوفر ، وقد جار على نفسه كما لم يجز أحد عليه ، وعناوين كتبه فحسب تغنى عن استقصاء هذه الظاهرة ، ومن تلك العناوين «عالمشى، قبض الريح ، خيوط العنكبوت» «وكانه يتمثل بقول الجامعة ابن داود «باطل الأباطيل» ، الكل باطل» (٦٤) وقد جار - فيما جار - على شاعريته - وهى أخصب ملكاته فى رأينا - فأنكرها على نفسه وانتهى إلى «إحدى اثنتين : إما أن يقول المرء شعراً من أعلى طبقة وإما أن يريح نفسه ويريح الناس ، فلاخير فى غير الكلام الخالد على الدهر ، وأنا أعرف بنفسى من أن يداخلى الغرور فى شأنها ، ولقد نظرت فيما قرضت من الشعر فهززت رأسى وقلت : «هذا كلام فارغ وأولى بى أن أعرف قدر نفسى فلاقلع» ورميت ديوانى حتى ما أعرف أين هو الآن إذا كان لايزال باقياً . . والشعر على كونه إلهاماً فن يسلس بالمرانة ، وقد أهملته حتى صرت لا أستطيع أن أنظم شطراً واحداً ، وحسناً فعلت فما ينقص الدنيا الكلام الوسط . . فإنه فيها بحمد الله كثير ، ثم حمد الغرور الذى فطر عليه الإنسان (٦٥) ؛ وقد ترددت هذه النعمة فى كثير من كتبه ، والمازنى له الحق فى أن يرى لنفسه مايشاء بقدر ما للدارسين الحق فى رؤيتهم مايشاءون أيضاً .

فالمازنى - فيما نعتقد - يستصغر كل جهد إنسانى بجانب الأقدار والخلود ، ويرى أنه لم يقل كل ما أرادته ويريده مرتبياً أنه لاجابة به إلى من الناس عليه ممن يحسبون أنهم يحسنون إليه بالتوقير والتقدير والعرفان ، وماذا فى وسع الإنسان أن يصنع بجانب الآباد ، وكل صنيعه إلى أمل وذكرى وكلاهما خيال ، وهو بهذه الوسيلة من الاستخفاف بمواهبه وملكاته قد :

(٦٣) ديوانه ، ص١٦٣ .

(٦٤) الكتاب المقدس ، ص٩٧٢ .

(٦٥) السياسة الأسبوعية ، ٢٥ أكتوبر ، ١٩٣٠ ، مقال المازنى .

أراح الحاسدين ، فإن تحدوا له فضلاً أعان على التحدى  
إذا اقتتلوا على الجدوى رماهم يقول أبى علاء غير مجد (٦٦)

ونكرانه الشاعرية على نفسه قد أساء إليه عند أكثر الباحثين فهم يرونه كاتباً وقصاصاً ويستغربون أن يكون شاعراً ، ومن العجب أن المازنى يعلم طبيعة الناس ، وأنها فطرت على الكنود والنكران يقول : «واعلم أنك إذا أنزلت نفسك دون المنزلة التى تستحقها لم يرفعك الناس إليها ، بل أغلب الظن أنهم يدفعونك عما هو دونها أيضاً ويزحزونك إلى ماهو وراءها ؛ لأن التزاحم على طيبات الحياة شديد ، والجهاد والتنازع لا يدعان للعدل والإنصاف مجالاً للعمل (٦٧) .

ولم يفقد المازنى - رغم استخفافه وقلة مبالاته - شعور الاحترام والتوقير من مخالطيه فاستحق لقب «تيمورلنك» من تلاميذه الشياطين حين خدعهم مظهره ، ولكنهم عرفوا بعد امتحان له أو امتحانين أى رجل هذا الضئيل الهزيل «وفهموا أنه رجل يملك زمام نفسه فلا يستعصى عليه أن يملك زمام الآخرين (٦٨)» .

فصورة الدعابة التى يبدو بها المازنى تعرف مواطن الاحترام والتقدير ، ولم تكن نابعة من قماء نفسية وكدها النكاية ، بل كانت نابعة من شعور بالمثل الأعلى وعدم مصالحة مع الواقع المسف ، وقد أغرت هذه الدعابة صديقه شكرى ، حين كان يسمع تعليقاته على ما يقرأ الثلاثة شعراً ونثراً فيقول شكرى فيما نقله العقاد عنه : «إن فيك يا أبا خليل لشيئاً ملكياً عفريتياً بلا افتراق وكان هو طيب الله ثراه لا يرفض هذا الوصف ، ولكنه يجيب عليه تارة إجابة الملائكة وتارة إجابة العفاريت» (٦٩) .

ومن تمام رسم الصورة المازنية أن نتحدث عن أصدقائه ، ويظفر إلى الذهن اسم صديقيه شكرى والعقاد وقد التأم شملهم فى مطالع هذا القرن ، وكونوا اتجاهاً جديداً فى تاريخنا الأدبى والنقدى ، وسوف نقف من هذه العلاقة على ماله

(٦٦) خمسة دواوين ، للعقاد ص ٢٦٧ ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٧٣ .

(٦٧) مقدمة العقاد لسبيل الحياة للمازنى ، ص ١٠ .

(٦٨) حياة قلم - العقاد ، ص ١٨٣ ، كتاب الهلال ١٩٦٤ .

(٦٩) المرجع السابق ، ص ١٨٢ .

مساس بالشاعرية ، ولن نتحدث عن جوانب أخرى للعلاقة إلا فيما يخدم  
مانقصده .

وقد تعرف المازنى وشكرى فى مدرسة المعلمين العليا ، حينما كانا طالبين بها ،  
ولندع المازنى بقلمه يصف هذه العلاقة «وكانا يومئذ - أى عام ١٩٠٧ طالبين فى  
مدرسة المعلمين العليا ، وكانت صلتى به وثيقة ، وكان كل منا يخلط صاحبه  
بنفسه ، ولكنى لم أكن يومئذ إلا مبتدئاً على حين كان هو قد انتهى إلى مذهب  
معين فى الأدب ورأى حاسم فيما ينبغى أن يكون عليه ، ومن اللؤم الذى أتجافى  
بنفسى عنه أن أنكر أنه أول من أخذ بيدي وسدد خطاى ، ودلتنى على المحجة  
الواضحة ، وإنى لولا عونه المستمر لكان الأرجح أن أظل أتخط أعواماً أخرى ،  
ولكان من المحتمل جداً أن أضل طريق الهدى ، أو أن يميل بى الجهل أو  
الضلال ، أو غير ذلك إلى ما تمرت عليه من زمان بعيد . . وقد كان من حظى أن  
وصلت المقادير أسبابى بشكرى فأعدانى وأفادنى صحة فى النظر واستقامة فى  
التفكير ، وفتح عينى على ذخائر وكنوز كنت حقيقاً أن أخطئها وأن تفوتنى وأنا  
أتخط وحدى(٧٠) .

وينبغى أن يوضع هذا النص فى إطاره التاريخى ؛ لأنه من قبيل مسح الجراح  
التي أحدثها المازنى فى نفس صديقه قبل ذلك فى الديوان ، ومثل هذه الحالة قميئة  
بالتواضع الشديد الذى يصل أحياناً إلى بخع النفس والمازنى بطبيعته رجل متسامح  
ودود ، ولأنه من غير المعقول أن يكون المازنى غير قارىء حتى يجيء شكرى ليدله  
على القراءة ، وعلى الرغم من هذه الملاحظة يبقى فضل شكرى فضل توجيه لمن  
يملك فكراً نشيطاً يستطيع أن يسير وحده .

وقد قام المازنى بدور التعريف بين شكرى والعقاد ؛ وطالما كانوا يجتمعون  
للقراءة والمناقشة ، ولكل منهم أمياله الخاصة فى القراءة والنظر ، يقول العقاد عن  
شكرى : «لم أعرف قبله ولابعده أحداً من شعرائنا وكتابنا أوسع منه اطلاعاً على  
أدب اللغة العربية وأدب اللغة الإنجليزية وما يترجم إليها من اللغات الأخرى ،

---

(٧٠) السياسة الأسبوعية ، ١٥ أبريل ١٩٢٠ ، مقال للمازنى .

ولا أذكر أنني حدثته عن كتاب قرأته إلا وجدت عنده علماً به وإحاطة بخير ما فيه ، وكان يحدثنا عن كتب لم نقرأها ولم نلتفت إليها ، ولا سيما كتب القصة والتاريخ<sup>(٧١)</sup> .

واستمرت علاقاتهم صافية ، يقرأون معا ويتناقشون فيما يقرأون ويكتبون ، ويتراسلون بالشعر ، فقد أرسل العقاد إلى كل منهما قصيدته «أحلام الموتى» والتي يقول فيها :

ستغرب شمس هذا العمر يوماً  
ويغمض ناظري ليل الحمام  
فهل يسرى إلى قبري خيال  
من الدنيا بأنباء الأنام  
ويمسى طيف من أهوى سميري  
ويؤنس وحشتي ترجيع هام<sup>(٧٢)</sup>  
ويجيبه المازني بقوله :

إذا ما الموت رنق في جفوني  
وبات بكفه يوماً زمامي  
فما يغنى خيال من حبيب  
يزورك بالتحية والسلام  
وكيف يصد عنك وأنت حي  
ويمسى واصلاً لك في الرجام<sup>(٧٣)</sup>  
ويجيبه شكري أيضاً بقوله :

وكان العدل أن ترضى بموت  
فلا طيف يساعد باللمام  
أليس الكون أكبر منك شأنًا  
وأولى بالمقباد والنظام<sup>(٧٤)</sup>

وينظم شكري قصيدته «الحبيبان» يشبه أحدهما بالجنة والآخر بالجحيم ، فيرد عليه العقاد بقصيدته «الحبيب الثالث» جامعاً بين الجنة والجحيم ، يقول منها العقاد:

(٧١) حياة قلم ، ص ١٩١ .

(٧٢) ديوان العقاد ، ص ١٠ ، مطبعة وحدة الصيانة بأسوان ، سنة ١٩٦٧ .

(٧٣) ديوان المازني ، ص ٣٨ .

(٧٤) ديوان شكري ، ص ١٥٢ ، جمع وتحقيق نقولا يوسف ، الإسكندرية ، سنة ١٩٦٠ .

فلاك من دُفَاع نار الجحيم      ووصلك الجنة دار النعيم  
وريقك الكوثر لکنه      كالمهل فی صدر المحب الکظیم (٧٥)

ويقرأ العقاد والمازني قصيدة ابن الرومي التونية التي يمدح بها أبا الصقر ،  
فيعارضانها في مطولتين من أجود ما كتب الشاعران ، يقول المازني منها :

غذائي الحب يا من فيه حرمان      منى له أبدا ما عشت نشدان  
وهل غذائي إلا أن أراك وأن      يمر بالسمع لفظ منك فتان  
وما أقل الذي أبغى وأيسره      لو كنت تنصف إن الحق عريان  
ذنبى إليك هوى ينفك يعلنه      شعري، وإحسانكم صد وحرمان  
يأليت أن ذنوب الناس قاطبة      شعر عفيف ، وأشواق وتحنان (٧٦)

وينظم العقاد على الوزن والروي ، فيقول :

ما ضر من نال في حين سعاده      إن فاته في طويل الدهر أحيان  
إذا جنيت من الأيام زهرتها      فاقنع فسائرها شوك وعيدان  
ولا وربك ما بالنفس مقتنع      أكان نجح لها أم كان حرمان  
فإن روينا فبعض الرى مظمأة      وإن ظمئنا فما يرتاح ظمآن (٧٧)

ويكتب المازني عن شكرى مقارناً بينه وبين حافظ ، مظهراً من هذه المقارنة  
فضل المذهب الجديد ، يقول : «وبعد : فإن حافظاً إذا قيس إلى شكرى كالبركة  
الآجلة إلى جانب البحر العميق الزاخر ، وحسب القارىء أن يتأمل ديوانيهما  
ليعلم ما بينهما من البعد ، وليعرف كيف يقعد الخيال بحافظ ويسمو بشكرى في  
سما الفکر» (٧٨) .

(٧٥) ديوان العقاد ، ص ١١١ .

(٧٦) ديوان المازني ، ص ٩٧ .

(٧٧) ديوان العقاد ، ص ٤٥ .

(٧٨) شعر حافظ - المازني ، ص ١٠ ، ط أولى - مطبعة اليوسفور ، ١٩١٥ .

ويصدر شكري الجزء الثالث من ديوانه بكلمة إهداء طيبة إلى المازني ، منشداً فيه قول أبي تمام :

وقلت أخ ، قالوا أخ من قرابة  
نسيبي في عزمي ورأى ومذهبي  
فقلت لهم إن الشكول أقارب  
وإن باعدتنا في الأصول المناسب (٧٩)

ويقدم المازني ديوان العقاد قائلاً : «وأحسبني أريد أن أقول إنني اطلعت من شعر العقاد على نواح كانت محجوبة عن عيني ، وإنني وجدت فيه التعبير عما كنت أحسه ولا أكاد أدرك كنهه ، أو ما أدرك ولا أقوى على العبارة عنه ، وإنني زدت للحياة فهمًا وبها شعوراً وعلمًا ، وماذا تبغى من الشعر بعد ذلك وهو شيء لا يؤكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يصلح أن يكون زينة أو ينفع في معاش» (٨٠) .

ويقدم العقاد ديوان المازني والجزء الثاني من ديوان شكري ، فيقول في المقدمة الأولى : «وللمازني أسلوب خاص لا يدلك على أنه أسلوب السليقة والطبع أكثر من هذا التآلف الذي تجده بين قلمه ونفسه ، فإن قلمه يتحرى الفخامة في اللفظ والروعة في حوك الشعر ، كما تتحرى نفسه على لطافتها الفخامة في المشاهد والروعة في مظاهر الكون والطبيعة (٨١)» ويقول في المقدمة الثانية : «إن شعر شكري لا ينحدر انحدار السيل في شدة وصخب وانصباب ، ولكنه ينسبط انبساط البحر في عمق وسعة وسكون» (٨٢) .

واستمرت هذه العلاقة الطيبة المثمرة حتى حدثت جفوة ، حيال أسبابها يذهب المؤرخون مذاهب شتى ، ولا يعنينا هنا استقصاء أسبابها بقدر ماتهمنا شهادة رجل منصف من أشد أولياء شكري وأصفياؤه وتلاميذه المخلصين ، هو الأستاذ على أدهم الذي سمعت العقاد في حضرته ينعته بمثل هذه الصفات ، يقول الأستاذ أدهم عن هذه المعركة : «وقد كانت معركة : «شكري هو البادئ بإثارة غبارها وإيقاد نيرانها ، وقد حورب فيها بذلك السلاح الذي شهره ، ولم يكن من حقه

(٧٩) ديوان شكري ، ص ٢٠٨ .

(٨٠) مقدمة ديوان العقاد ، ص ١٥ .

(٨١) ديوان المازني ، ص ٢٣ .

(٨٢) ديوان شكري ، ص ١٠٤ .

أن يشعر فيها بظلم وقع عليه ، وهو البادىء بالهجوم» (٨٢) .

ومن الطبيعي أن يرد المازنى ويعنف فى الرد وفاقاً مع طبيعته وطبيعة المعركة وظروف العصر ، الذى لاينكر مثل هذه الأساليب فى المارك ، ولاينبغى أن ينكرها أى عصر يستقيم فيه نظر الناس ؛ واثرت ناثرة شكرى فشرع فى نقد المازنى والعقاد معاً ، يقول الأستاذ أدهم : «ولم يكتب الأستاذ شكرى بنقد المازنى بل شرع كذلك فى نقد شعر العقاد نقداً عنيفاً ، وكان شكرى يكتب هذا النقد بغير إرضائه ، ولكن الأدباء الذين عاصروا هذه الفترة كانوا يعرفون حقيقة كاتب هذه الفصول، وكنت أعلم علماً ليس بالظن علاقة الأستاذ شكرى بصاحب عكاظ . . . ولم يكن ماكتبه شكرى فى نقد المازنى والعقاد من المستوى اللائق بأدبه العالى وثقافته الممتازة ، وواضح أن المازنى فى كتاب الديوان أراد أن يثار لنفسه ، بعد أن احتمل أشهراً استرسال شكرى فى نقده على صفحات عكاظ ، ولذلك لم يكن من المنتظر أن يكون نقد المازنى لشكرى نقداً موضوعياً قوامه البحث الهادىء والتحليل الدقيق ، وتحرى الإنصاف ونشدان الحقيقة» (٨٤) .

وشهادة الأستاذ أدهم شهادة لها وزنها فى هذه القضية ؛ لأنه كما سلف من مريدى شكرى ، وماكان من المنتظر أن يدين أستاذه هذه الإدانة لولا الموضوعية وتحرى الإنصاف ، ولأنه أيضاً معاصر لهذه الفترة الدقيقة فى التاريخ النقدى والأدبى ، ولأنه أخيراً أديب وناقد ممتاز يعرف للحقيقة قدرها وللأمانة العلمية قيمتها .

وقد استغل صرعى المذهب العتيق هذا الشقاق فحاولوا توسيع الهوة بين الأصدقاء وكان للاتجاه المحافظ أصابع قوية فى تعميق هوة الخلاف بين شكرى والمازنى مستغلين موقف شكرى من سرقات المازنى الأدبية ، وكان العقاد قد تمكن فى ١٩١٧ من لم الشمل وجمع الكلمة ، ولكن دور المحافظين بالحيل الظاهرة والباطنة قد بعث الخلاف من جديد وطوره (٨٥) .

(٨٣) مجلة المجلة ، فبراير ، سنة ١٩٥٩ .

(٨٤) المرجع السابق .

(٨٥) المارك الأدبية : رسالة دكتوراه بمكتبة دار العلوم للدكتور محمد أبو الأنوار ، ص ١٤٣ .

وأنتجت هذه المعارك مقالات نقدية بالغة العنف وشعراً بالغ اللذع ؛ ففي الديوان الذى أصدره العقاد والمازنى مقالتان أو قصيدتان هجائيتان (٨٦) ، وليس من قبيل الاعتذار أو الدفاع عن أسلوب المازنى فيهما وفى غيرهما أن نقول إن طبيعة العصر والإحساس بالذات وحرية الكتابة كانت تسمح بمثل هذا الأسلوب وبأعنف منه ، فإن المازنى مبدوء بالمعركة فليحتمل منا جزوه ما جروه على أنفسهم من شواظ المعركة وغبارها .

أما الشعر الذى أنتجته هذه المعركة فسيكون اختيارنا له من قبيل الترجيح لا القطع ؛ لأنه للأسف يرد دون ذكر مناسبات ، وسنعمد على الفهم الداخلى للنص مع عون التاريخ ماكان عونه .

للمازنى قصيدة بعنوان «إلى صديق قديم» قدم لها بهذا التقديم الثرى «كان لنا صديق أخلصنا له الولاء وصدقناه الإخاء فما زال يوهن من حبلنا ويفصم من عرى ودنا حتى انفرجت الحال ، ووقعت النبوة وجرى بيننا كلام ، فبعثنا له بهذه القصيدة :

بعض بغضائكم أولى البغضاء  
 إنما الشتم شيمة السفهاء  
 ليس يشفى السباب غل حقود  
 قد طوى صدره على الشحناء  
 إلى أن يقول :

هو حمى الجليس يدفع فى  
 أعجمى اللسان فه عيى  
 يملأ السمع والقلوب كما يزعم  
 رطب اللسان عذب الأداء  
 يقطيع اللسان مالك والشعر  
 الصدر ثقيل الكلام والإيماء  
 يدعى أنه من الفصحاء  
 وصوغ الكلام جم العناء (٨٧)

ويعلق الدكتور مندور على هذه القصيدة بأنها قيلت فى هجاء شكرى (٨٨) ، ولنا

(٨٦) راجع فلسفة الفن والاتجاهات النقدية عند المازنى : رسالة ماجستير بمكتبة دار العلوم : إسماعيل السيفى ١٠٤ .

(٨٧) ديوان المازنى ، ص ٥٩ ، ٦٢ .

(٨٨) إبراهيم المازنى - د. مندور ، ص ٦٣ .

تعليق على تعليق مندور ، فالقصيدة فى الجزء الأول من ديوان المازنى الصادر عام ١٩١٢ كما يقول الدكتور نفسه ، وللمازنى قصيدة بعنوان «استقبال صديق» فى الجزء نفسه ، وقد قيلت فى استقبال شكرى عندما «عاد من إنجلترا» فى خريف عام ١٩١٢ وكان فى السادسة والعشرين ، واستقبله صديقه المازنى لدى وصوله بقصيدة (٨٩) ، ثم إن المازنى كتب جملة مقالات عام ١٩١٣ جمعها بعد ذلك عام ١٩١٥ فى كتابه «شعر حافظ» ، نوه فيها بشاعرية شكرى أبلغ تنويه . كل هذه الملاحظات تجعلنا نقف موقف الشك - إن لم يكن الرفض - من حكم الدكتور مندور ، لأنه من المحتمل أن الجفوة قد وقعت عام ١٩١٦ وفقاً مع التاريخ ، وقد تمكن العقاد فى عام ١٩١٧ من لم الشمل وجمع الكلمة بين الصديقين ؛ ويبدو أن لم الشمل حدث بعد أكثر من ثلاثة أشهر من العام نفسه ؛ لأن غبار المعركة كان حديث «المقتطف» تلك الشهور (٩٠) ، ولأن ديوان المازنى (الجزء الثانى) صدر عام ١٩١٧ ، وفيه حديث المازنى عن سرقاته والرد على شكرى ، وقد احتفت «المقتطف» بهذا الجزء من ديوان المازنى ، وكأنها تدافع عن صاحبه أمام هذه الهجمات (٩١) ، ولأن الجزء الثالث من ديوان شكرى الصادر عام ١٩١٥ مصدر بإهداء كريم للمازنى .

كل هذا يقف حائلاً دون حكم الدكتور مندور . . فإن هذه القصيدة على فرض كتابتها عام ١٩١٣ ، وهو تاريخ صدور هذا الجزء بعد استقبال المازنى لصديقه عام ١٩١٢ ، سابقة على الجفوة التى وقعت بين الصديقين .

وتماشياً مع الأحداث التاريخية ، يمكن الحكم باطمئنان بأن الدكتور مندور اعتمد على الذاكرة وقد خانت ، أو على التخمين الذى يظن أن القصيدة فى هجاء شكرى لأنها فى هجاء أديب شاعر .

وفى اعتقادنا أن المعركة بدأت عام ١٩١٦ ، والدليل على ذلك أن الجزء الخامس من ديوان شكرى الصادر عام ١٩١٦ قد ختم مقدمته بالإبانة عن سرقات

(٨٩) ديوان شكرى مقدمة نقولا يوسف ، ص ٥ .

(٩٠) راجع مجلة المقتطف ، يناير ومارس ، مقالان لشكرى وأحمد زكى أبو شادى ١٩١٧ .

(٩١) راجع مقتطف يونيه ١٩١٧ .

المازنى ، وفيه قصائد كثيرة يحتمل أن تكون فى هجاء المازنى ، ولو كانت المعركة حدثت قبل ذلك . . لكان لها نصيب فى شعر شكرى ونقده وبخاصة فى الجزء الرابع من ديوانه الصادر عام ١٩١٦ أيضاً ، فالمعركة إذاً حدثت بالتحديد بعد بداية ١٩١٦ ، ويكفى أن نطالع عناوين قصائد الهجاء لدى شكرى ؛ لأنها تشير إلى أنها قيلت فى المازنى ، فقصيدة «لص أم أديب» يقول فى مطلعها :

أُسرق من شعري ونقده فى شعري      كذلك لصوص الشعر فى مسلك وعر(٩٢)

وفى أخرى بعنوان «صرصور الشعر» يقول منها :

يا أيها الشانىء المغرور يشتمنى      ارفق بنفسك ليس الشتم يؤذيني

لذ بالجبال وضعها فوق فضلى ، واشتمنى كما شئت ، شتم الوغد يعلىنى(٩٣)

وفى ثالثة بعنوان «النقد القدر» يقول :

نقدك هذا وضر الزيت      لوث به ماشئت من بيت

يفسله الدهر بأواجهه      إذ أنت فيه طعمة الموت

شعري مثل الدهر فى صوته      وأنت غر خافت الصوت

إن تعب الناقد فى نقده      بادره باللو وبالليت(٩٤)

والحاح شكرى على اتهام المهجو بالسرقة يرجح أن تكون هذه القصائد فى هجاء المازنى ؛ ونقول «يرجح» لأنه ليس لدينا دليل جازم على صحة هذه المقولة .

وإذا ذهبنا نستقصى أثر هذه المعركة عند المازنى فى الجزئين الثانى والثالث من ديوانه - بصرف النظر عما جاء فى كتاب «الديوان - نرى أنه أشار إليها فى مقدمة الجزء الثانى ، ويفهم أنه اضطر إلى هذه الإشارة لأن قراءه ينتظرون منه كلمة عما اتهم بانتحاله ، ولولا هذا الانتظار ماكتب ولا أشار ، وقد اعتذر فيها بما عن له من اعتذارات خاتماً المقدمة بهذه الكلمة الحزينة المحزنة «هذا . . ولايسعنا إلا أن

(٩٢) ديوان شكرى ، ص ٣٩٢ .

(٩٣) السابق ، ص ٤٢٤ .

(٩٤) المرجع السابق ، ص ٤٢٥ .

نشكر لصديقنا شكرى أن نبهنا إلى مأخذ شعرنا والسلام» (٩٥) .

وبمراجعة هذا الجزء لم نجد إلا مقطوعة بعنوان «إلى رجل يشتمنا» ، قال فيها :

رفقًا بنفسك إننى رجل      لا بغض فى قلبى لمن جهلوا  
حسن الكراهة فى تبادلها      لا أن ينوء بثقلها رجل  
فاقل الذين إذا ثلبتهم      أضنى نفوسهم بك الشغل  
إنى لأنف أن أسف إلى      أمر سيعقبنى له خجل (٩٦)

وليس لدينا دليل سوى الاحتمال فى أن مثل هذا الشعر قيل فى شكرى .  
وليس فى هذه المقطوعة من معانى الهجاء سوى العتب الحانى ، مما يدل - إن  
صدق الاحتمال - على أن المازنى مبق على صديقه رغم جهله له ، أو أنه يرخى  
جبال الود لصديقه ، عله لا يندد به ويعود إلى ساحة الرضا والصفاء ، ولكنها  
مجرد احتمالات .

وفى هذا الجزء نفسه قصيدة ملفزة لأنها رسالة إلى شكرى ، وفيها من الودادة  
واللهفة مالا يصدر إلا عن صفاء ووثام ؛ وهى بعنوان «عبث الحياة وباطلها» ،  
يقول منها :

تبني حياة لا تحس صروفها      وتذم طول تصوب وتصعد  
لهفى عليك وقد تخالجتك الأسى      وعلى من خلق الهموم الأوغد  
إننا كلينا واجد متجلد      يخطو إلى الغايات خطو مقيد  
وكأنا كتب الزمان حياتنا      بدم كحاشية الظلام الأربد (٩٧)

ويحتمل أن تكون هذه القصيدة كتبت قبل وقوع النبوة ، وعز على المازنى أن  
يحذفها حين طبع ديوانه ، أو يحتمل أن المازنى راجع طبعه بعد أن هدأت لواعج  
الغضب مرتبياً أن كل مافى الدنيا عبث وباطل وقبض الريح بله هذه الخلافات بينه

(٩٥) ديوان المازنى ، ص ١٢ .

(٩٦) السابق ، ص ١٩٧ .

(٩٧) السابق ، ص ١٧٥ .

وبين صديقه القديم ، فكتب القصيدة فى حالة من حالات مراجعة النفس ، وهذا دليل على بطانة نفسه الحريرية .

ويبدو - كما قلنا - أن رأب الصدع عاد إلى الانصداع مرة أخرى بعد تمكن العقاد من لم الشعث ؛ لأننا نرى قصيدة فى الجزء الثالث من ديوان المازنى بعد عام ١٩١٧ ، وهو الجزء الذى لم يطبع فى حياة الشاعر ، وصححه وضبطه الأستاذ محمود عماد ، هذه القصيدة بعنوان «الحمار المستأسد» وقد عاودت المازنى حدته وعرامته ؛ لأن فى القصيدة نبوءاً خادشاً اضطر الأستاذ عماد إلى حذفه ، وإن خالف بذلك أمانة النقل - كما قال - بين يدي هذه القصيدة - يقول المازنى فى مطلعها :

النجاء النجاء يا ابن ... من سيوف الهجاء ذات المضاء  
لا لعمري ، وأين تهرب منى ومناباى طى هذا الهواء (٩٨)

ونقول مرة أخرى إنه ليس لدينا دليل ملموس جازم على صحة ماذهبنا إليه ؛ لأن القصائد فى أغلبها لاتذكر لها مناسبة إلا من قبيل الإشارات أحياناً من أصحابها أو من غيرهم .

وعلا غبار المعركة بعد ذلك حتى بلغ أوجه فى كتاب الديوان عام ١٩٢١ ولعبت أصابع المقلدين دوراً خطيراً فى تعميق هوة الخلاف ، الذى لم يستطع العقاد عام ١٩١٧ إزالته كما ينبغى .

ولكن المازنى عاوده طبعه السمح الودود فاعتذر لشكرى ، وكتب مقالة فى «البلاغ» فى أول سبتمبر عام ١٩٣٤ ، يعتذر فيها عما بدر منه ويعلن فضل شكرى وتوجيهه له . . . ونظم شكرى قصيدة بعنوان «بعد الإخاء والعداء» وقد ذكر العقاد أن هذه القصيدة قيلت فى الأستاذ المازنى وزاد ، فقال إنها من أروع قصائد الأدب العربى (٩٩) .

---

(٩٨) ديوان المازنى ص ٢٤٣ ، وقد سبق الاستشهاد بمقطوعة كبيرة منها ، ومكان النقاط فى شطر البيت الأول كلمة «الزناء» فيما نعتقد .

(٩٩) ديوان شكرى ، مقدمة الأستاذ نقولا يوسف ، ص ٩ ، ١٠ .

يقول شكرى من تلك القصيدة :

حنوت على الود الذى كان بيننا  
حنوت ولو أنى حنوت وماحنا  
ولا أكذب الناس قلبى كقلبه  
كلانا جنى شرا ، فعاد إخواؤنا  
وإن صد عنه ماجنينا على الود  
ولو أنه يبغى هلاكى من الحقد  
له أنة ميل عن النصف والقصد  
محالا حكى ذكرى الشباب على بعد  
وأين قديم الود من حاضر الصد  
فيا طيب ذكراه ، ويا بعد عهده  
إلى أن يقول :

رحيق الحياة الود لو دام صفوه  
وأحسنه ماكان من عصرة الصبا  
فمن لى بعود الدهر للود والصبا  
يخال الصبا ودا ، وود الصبا صبا  
وكالخمر - أصفاه المعتق ذو العهد  
ولم يحل بعد الشيب مستحدث الود  
ألفين ماكانا ، كما الند للند  
كبانهما الممزوج كالجوهر الفرد<sup>(١٠٠)</sup>

وينتقل المازنى إلى العالم الآخر ، فيكيه العقاد أبلغ البكاء وأوجعه نشراً وشعراً يقول . لقد قيل إن الصديق نفس ثانية فى جسم آخر وماهى بكلمة صادقة إن لم تصدق على صداقة سبع وثلاثين سنة أو تزيد ، تعاقبت فيهما الحوادث بفتنها وأهوالها ففرقت بين الوالد وولده وبين الأخ وأخيه وبين الزميل وزميله ؛ ووقفت دون تلك الأصرة السماوية لاتبلغ إليها بضربة من ضرباتها ، ولاتسعى إليها بنفثة من نفثاتها ، ولاتمسها إلا لتزيدها قوة على قوة ومناعة على مناعة ، ثم تتركها نفساً واحدة تفترق بالرأى فتلتقى بالشعور وتفترق فى الشعور ، فتلتقى فى صلة من صلوات الروح ، تجمع البديهة على البديهة والخيال على الخيال والمعنى على المعنى شاخصة ماثلة مذكورة ، حينما تقلبت صفحة من كتاب أو ترددت عبارة من مقال<sup>(١٠١)</sup> .

(١٠٠) السابق ، ص ٥٨٩ ، ٥٩١ . ويذكر مقدم الديوان أن هذه القصيدة نشرت بمجلة الرسالة ، عدد

١٢٠ ، فى ٢١ أكتوبر عام ١٩٢٥ .

(١٠١) بعد الأعاصير ، ص ١٣٤ .

ويبكيه شعراً فى نشيج حزين ، ويكون بلاغ قوله نفثته الأخيرة :

نمينا شعمرنا صنوين حيناً      فكيف رثاؤه بالشعر وحدى  
وجاوزنا السهول معاً ؛ فماذا      ستجدى فى الوعود جهود فرد  
إذا ثقل الشباب ولى زميل      فيا بؤس المشيب المستبد  
حياة إن تطل ، فالويل ويلى      وإن تقصر فقد أبلغت قصدى  
سلاماً أيها الدنيا سلاماً      لأنت أحب لى لو عاش بعدى (١٠٢)

هذه صداقات المازنى فى عالم الفكر والأدب ، نحس فيها بنفس ما صفرت من الود للحياة والأحياء فى لحظة من اللحظات ، وإن غامت سماؤها فإنما هو الغيم الذى لا يحجب الشمس إلا لتشرق من جديد ، وتشعر فيها بقلب يسع السبعة الأقاليم طراً» كما يقول ابن الرومى ، يساجلك العطف ويجاذبك الودادة ، وما حرم يوماً من صداقة الإنسان والحياة . واستحق المكانة اللاتفة به عند صديقيه الكبيرين ، ولولا ذلك لكان محلاً عنها ، مصدوقاً عن سبيلها .

تلك هى خطوط الصورة المازنى توخينا فيها الدقة والأمانة ما أمكن ، وراعينا فيها ألا يغلب لون على لون إلا أن يضيف شيئاً إلى ملامح هذه الصورة تكمل به الإبانة عن هذه الشخصية ، وما كانت صورته فى عالم الواقع إلا نديداً لصورته فى عالم الجمال ؛ حيث رثاه العقاد فى نثر وشعر .

---

(١٠٢) خمسة دواوين للعقاد من ٢٦٩ ، وقد ذكر لى أستاذى وصديقى الشاعر على الجندى - قدس الله سره - أن هذه القصيدة أبلغ ما قيل فى رثاء صديق فى الأدب العربى .